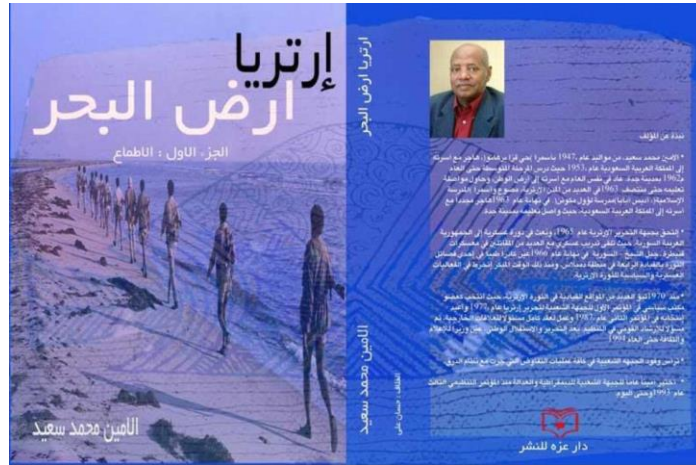


الحلقة السادسة والاخيرة

الفصل الخامس

الهجرة الى الغرب ! (1)



(1)

ما ان تمكنت حكومة السيد اسفها ولدي ميكائيل من الاستيلاء على زمام الامور، حتى ازدادت الاوضاع العامة في ارتريا سوءا في كل مناحي الحياة، وبصفة خاصة الاحوال الاقتصادية والمعيشية

(1) الهجرة الى السودان.

للمواطنين. فقد تم عن سابق قصد، اجبار العديد من المصانع والشركات من تصفية اعمالهما، وتم اهمال ميناء مصوع، واصبح لا يوفر لقمة عيش لعماله، وتسارعت وتيرة هجرة مواطني الريف الى المدن بحثا عن عمل ما او بحثا عن الامان، وانتشرت اعمال السلب والنهب خاصة مع ازدياد نشاطات عصابات قطاع الطرق "الشفقتا". واصبح الناس من جراء كل ذلك عرضة للضياع، والخوف على الحياة والاملاك والاسر.

ولم تختلف الاوضاع بالنسبة لإدريس وزميلية حقوص اعدوم واسماعيل زبوي عمريت. واصبح من الصعب عليهما، خاصة بعد ان تم تسريحهما من الميناء، توفير لقمة عيش لأبنائهما. كما ان ادريس لم يكن بأحسن حالا منهما وذلك نتيجة لانخفاض اقبال الناس على شراء مواد التجميل التي يتاجر بها. واصبح الجلوس لساعات طويلة في دكان ادريس في السوق العربي والدرشة فيه العمل الاساسي المتوفر لهم.

وذات يوم من ايام شهر مارس من عام 1956م، وفي حوالي العاشرة ليلا، وبينما كان ادريس مستغرقا في نومه، قامت السيدة فاطمة

بإيقاظه عندما سمعت بعض الطرقات على باب المنزل، فانتفض
مذعورا وهو يقول:-

- خير يا فاطمة ما الامر؟

ودون تردد اجابت:-

- هناك طرق بالباب، من يأتينا في مثل هذا الوقت ...

وتمتت ببعض الكلمات وهي تحقق نحو الباب.

توجه ادريس الى باب الدار للتأكد من صحة الامر. وما ان فتحه
حتى وجد امامه ثلاث اشخاص تبين له من هيئتهم بانهم من رجال

المباحث العامة، وسرعان ما بادره كبيرهم:-

- هل انت ادريس محمد صالح؟.

رد عليه قائلا:-

- نعم انا ادريس محمد صالح، ومن انتم وما الامر، وما

السبب الذي يدعوكم لزيارتي في هذا الوقت المتأخر؟.

اجاب كبيرهم قائلا:-

- نحن من رجال المباحث العامة، واسمي الشاويش عمر

خيار وهؤلاء زملاء لي.

تأكد ادريس بانهم فعلا من رجال المباحث العامة، اذ لاحظ صرامة وجوههم وطريقة ردو كبيرهم التي خلت من السلام والتحية، كما يفعل مواطني قرية الشيخ حليب، عندما يقومون بزيارة بعضهم البعض.
اجاب ادريس بشكل حاسم:-

- نعم انا ادريس ماذا تريدون مني؟.

اجاب الكبير قائلا:-

- نريدك منك ان تذهب معنا الى المركز للرد على بعض الاستفسارات التي نريدها.

استغرب ادريس في هذا الطلب الذي اخذ طابع الامر في هذه الساعة المتأخرة من الوقت فقال:-

- ان الوقت غير مناسب في هذه اللحظة. فانتم كما ترون فقد شارفنا على منتصف الليل، ولا زال اهل بيتي نياما.

واضاف قائلا:-

- الا انني لا اعترض على ان اسجل لكم زيارة متى ما اصبح الصبح.

لم يتردد الشاويش عمر خيار من القول:-

- لا نريد اطالة الحديث معك، فهناك مهام اخرى تنتظرنا...
كل الذي نريده هو ان تذهب معنا الى المركز دون
اضاعة الوقت.

ادرك ادريس بان اطالة الحديث مع مثل هؤلاء القوم لن يجدى. وان
افضل اسلوب لتجنب سخريتهم وقلة حيائهم هو مجاراتهم، وعدم
اظهار الخشية منهم، فقال:-

- لا مانع لدي من الذهاب معكم الى اي مكان تريدونه. لكن
اطلب منكم اعطائي الفرصة لاستبدال ملابسي، وابلاغ
زوجتي بالأمر.

بدأت امارات الغضب تشع من عيني الشاويش عمر وعلى الفور
قال:-

- انت لا يحق لك ان توجه لنا الطلبات. وما عليك سوى
الانصياع لما نقوله. ولا يحتاج الامر الى ابلاغ زوجتك،
فهي تسمع وتشاهد ما يدور بيننا.

تدخلت السيدة فاطمة حيث قالت:-

- لا عليك يا ادريس، يمكن ان تذهب معهم وفي الصباح
سوف احاول ومعى اخوك احمد الاستفسار عن احوالك.

تشجع ادريس واكتفى بما كان يرتديه من فوطة وفلينة قطنية، وشبشب اسفنجي صنع في احدى بلدان شرق اسيا. وسارع بالتلويح لزوجته مودعا، ربما بصورة متعمدة لإغائة الشاويش عمر خيار، واغلق الباب من ورائه، و اشار الى الرجال الثلاثة باصطحابه الى المكان الذي يريدونه.

لم يكن ادريس يعرف المكان الذي سيؤخذ اليه. وبعد ساعة كاملة من المشي على الاقدام، توقف الرجال الثلاثة امام احدى البوابات العريضة لحوش مسور بالأسلاك الشائكة، يقبع داخله مبنى من مخلفات العهد الايطالي، مكون من طابقين متهاكين، يغرق فيه كل شئ في ظلام دامس زج بإدريس فيه دفعا وهو يتعثر في ردهات المبنى، حتى انهالت عليه مئات الصفعات واللكمات، واللعنات والكلمات السوقية التي تتعرض لشرفه وانسانيته من قبل اناس لم يتمكن من معرفة ملامحهم. واحس بوطأة حرارة المكان وارتفاع درجة رطوبته، واخذت رائحة بول وبراز من سبقوه في المكان تتغلغلان في كافة جسده الهزيل.

فاعتقد ادريس وكان الارض قد انشقت على نفسها لابتلاعه هو وحده، دون ان تتعرض لؤلئك الذين يكيلون له الصفعات والشتائم.

ودخل في غيبوبة لم يفيق منها الا مع تباشير الصباح الاولى عندما ركل احد الحراس احدى قدميه، طالبا منه النهوض والتوجه لمقابلة مسؤول المركز.

كان المسؤول عن مركز الاعتقال احد ضباط المباحث العامة من اصل سنغالي سوداني، استجلبته الادارة الاستعمارية البريطانية من السودان للعمل في الشرطة الارترية، وكان برتبة ماجور⁽¹⁾، ولا يعرف عن اسمه سوى انه يدعى الماجور ابو فاطمة. وقد كان احد المؤتمنين في قيادة الشرطة الارترية وعلى راسهم الكولونيل⁽²⁾ تدلا عقبيت. واحس ادريس بانه في وضع حرج للغاية بمجرد ان وقعت عيناه على الماجور ابو فاطمة، اذ كان يعرف ويسمع بانه شخصية طاغية لا يرحم من يقع بين يديه، شديد البطش بمن يعتبرهم مناوئين لنظام الحكم الارتري المرتبط بالامبراطورية الاثيوبية، والسلطات الاستعمارية البريطانية. ولا يتورع في ممارسة كافة انواع التعذيب، وحتى التصفية الجسدية ضد كل من لا يتعاون معه اثناء التحقيق.

(1) ماجور هي رتبة عسكرية استخدمت في الجيش البريطاني، وهي تساوي رتبة الرائد في العديد من الجيوش الحالية.

(2) الكولونيل رتبة عسكرية تعادل رتبة العقيد.

وكخطوة اولية لإدخال الرعب على المعتقلين كما يفعل رجال
المباحث عادة، بحلق الماجور ابو فاطمة على ادريس واخذ يتفحص
كافة اعضاء جسده، من راسه حتى اخمص قدمية، بينما يده اليمنى
تداعب العصا التي يستخدمها ضباط الشرطة. وما ان فرغ من ذلك
حتى سال قائلاً:-

- ما اسمك؟.

رد عليه ادريس بلامبالاة قائلاً:-

- اسمي ادريس محمد صالح، وانا من اهالي قرية الشيخ
حليب.

وبصورة تتم عن الاستهتار سال قائلاً:-

- ماذا اتى بك الى هنا؟.

رد ادريس:-

- لا علم لي بذلك، فقد اتى يوم البارحة بعض الرجال الى

منزلي وطلبوا مني ان اصطحبهم الى ...

وقبل ان يكمل كلامه قاطعه الماجور ابو فاطمة شاتماً:-

- يا ابن الزانية ... يا ابن الكلب، الى اين كنت تتوقع ان
يصطحبك رجالنا، الى فندق⁽¹⁾ Albergo Chiao .
عقدت الدهشة لسان ادريس، فهو وان كان يسمع عن فظاظة هذا
الضابط، فانه لم يكن يتوقع ان تصل به السفالة الى هذا الحد من
السفه. ومع ذلك اضطر ان يرد قائلاً:-

- لم اكن ادري حقيقة الى اين كان يأخذني رجالك.
انتفض الماجور من الكرسي الذي كان جالسا عليه وهب واقفا،
ولطم وجه ادريس وهو يصيح كالمسعود ليقول:-

- الا تخجل ان تقول لي رجالك؟ الا تدري بان من
اصطحبك ليسوا سوى رجال مخلصين لوطنهم ولقياداتهم؟.
عجز ادريس عن الرد بفعل الصفة، وضاع منه الرد فاختر
الصمت، ليواصل الماجور كلامه قائلاً:-

- اين وماذا تفعل؟

تشجع ادريس بعد ان زالت عنه مؤقتا اثار ما احدثته صفة الماجور
ليقول:-

⁽¹⁾ Albergo Chiao هو احد الفنادق الفخمة الذي يقع في جزيرة طولوت في مصوع، وهو يطل
على البحر ولايرتاده سوى رجال الحكومة، ومن لهم قدرات مالية من التجار.

- اعمل في مجال التجارة، ولى دكان صغير متواضع في السوق العربي ابيع فيه ادوات الزينة والتجميل.
لم يكتف الماجور ابو فاطمة بما قدم له من توضيح، اذ اراد المزيد ليقول:-

- ولمن تبيع تلك المواد؟.

رد ادريس:-

- لمن له القدرة على الشراء.

اعتقد الماجور بان ادريس يهزه به. الا انه اراد ان يخفي انطباعه، والحصول على قدر المستطاع على معلومات قد تفيده اذ قال:-
- وكيف تسير عملية البيع هذه الايام؟.

استدرك ادريس بان ما يطرح عليه لم يكن الا تخابثا من ابو فاطمة. فاذا رد عليه بان الامور تسير بصورة مرضية فان ذلك سوف يعطي الانطباع بانه يكذب على الماجور، الذي يدري دون شك تدهور القدرة الشرائية للمواطنين، وهذا سوف يعرضه للمزيد من الاسئلة، وربما الى المزيد من الصفعات التي لا حوجة له بها. واذا رد عليه بصورة سلبية، فان الماجور سوف يقتنع بانه من منتقدي السياسية

الاقتصادية والتجارية التي تتبعها حكومة السيد اسفها ولدي ميكائيل، وهذا سوف يفتح عليه ابواب جهنم. وعلى الفور قال دون تردد:-
- المجال الذي اتاجر به مرتبط بموسم الافراح مثل الزواج، والخطوبة والختان. والناس لم تترك مثل هذه السنن، فهم يتزوجون، ويختنون ابنائهم، ولذلك لا نعاني اي اشكالات في مجال بيع ما نتاجر به.

تتحنح الماجور ابو فاطمة الذي احس ايضا بانه يواجه شخصية عنيدة، تفلت من مكائده وحيله بكل سهولة ويسر. فأعطى اشارة من يده للحارس الذي كان يقف بجواره، تدل على اعادة ادريس الى معتقله.

لم تظمن السيدة فاطمة منذ ان اصطحب رجال المباحث العامة زوجها ليلا الى حيث لا تدري. ومع انبلاج فجر صباح اليوم الثاني، قامت مسرعة من مرقدتها وايقظت ابنها منصور، واخبرته بما جرى لأبيه مساء البارحة. وطلبت منه التوجه الى عمه احمد واخباره بالأمر. وما ان علم احمد بالأمر حتى هرع الى منزل اخيه وأشار على السيدة التوجه الى مركز البوليس القريب منهم، عليهم يستدلون على خبر ما لادريس.

توجه الثلاثة فاطمة واحمد ومنصور الى مركز بوليس قريتهم، ليجدوا فيه الشاويش طعم ازقي، الذي اخبرهم بان لا علم له بما جرى، ونصحهم بالتوجه الى مركز الاعتقال الذي تديره مصلحة المباحث العامة في منطقة شاكا التي تقع جنوب مدينة مصوع، وحذرهم بان لا يقولوا لأي كان بانه هو الذي ارشدهم الى المركز. وبناء على ذلك توجهوا الى مقصدهم، وطلبوا اذن الدخول من حارس بوابة المعتقل. وبعد اخذ ورد، وسؤال وجواب، والكثير من المماطلة، تمكن الثلاثة من الدخول الى المركز، ليجدوا فيه الماجور ابو فاطمة منتصبا امامهم بقامته المديدة.

لم تمهل السيدة فاطمة الماجور حتى لا يصدهم منذ الوهلة الاولى، فأسرعت قائلة:-

- لقد جننا للاستفسار عن رب اسرتنا.

التفت الماجور يمينا ويسرى ليقول بعدها:-

- ومن الذي دلکم على هذا المكان؟ وكيف عرفتم بان من

تبحثون عنه موجود معنا؟.

استدركت السيدة فاطمة بان الماجور يريد استدراجها لمعرفة من ارشدها الى مركز الاعتقال. وتذكرت ما قاله لها الشاويش طعم ازقي، فقالت دون تلوؤ:-

- الحقيقة ومنذ الصباح الباكر ونحن نستفسر عن ادريس في مراكز البوليس، سواء في قرينتا او القرى القريبة منا. وعندما لم نجد اي رد، حبذنا المجيئ الى هنا علنا نجد خبرا عنه يريحنا.

اراد الماجور عدم اضاعة الوقت في الحديث مع اسرة ادريس، اذ كان ورائه عملا اخر لا يختلف عن ما قام به مع المعتقل ادريس، كما اراد ابعاد السيدة ومرافقيها قائلا:-

- سوف لن تتمكنوا من رؤية ادريس في الوقت الحاضر، فنحن لم ننه تحقيقاتنا معه. وسوف يعود اليكم قريبا، على شرط ان يقوم بما يمليه عليه واجبه من تعاون تجاه ما يطلب منه.

ادركت السيدة فاطمة بان ادريس لازال حيا، وانه متواجد في هذا المركز، وهذا ما كانت تريد معرفته. فقررت مغادرة المكان حتى لا تنهال عليهما لعنات وشتائم حراس المعتقل.

(2)

كان مركز الاعتقال بكل ما يحمل من قسوة ووحدة مكانا لم يطقه ادريس، وحتى الوجبة الواحدة التي كانت تقدم اليه كل صباح اضرب عن تناولها. وكانت تتألف هذه الوجبة في العادة من حساء او مرق العدس مع قطعتي خبز جافتين وقاسيتين لمن لا يملك اسنان قوية. وكان الماء الذي يقدم له يختلط به في الكثير من الاحيان رائحة البنزين الغير مطاقة. كما انه كان يتضايق كثيرا من الروائح الكريهة التي تتبعث من كافة انحاء المبنى، وذلك بفضل تراكم قاذورات وفضلات حراس المعتقل. بالإضافة الى ما كانت تسببه له لزوجة ارضية زنزانتة الانفرادية وذلك نتيجة لقرب المعتقل من شاطئ البحر. واكثر ما كان يحز في نفسه هو عدم قدرته على معرفة ما يجري خارج المعتقل.

كان ادريس وعلى الرغم من اقتناعه بضرورة تحمل قسوة الاوضاع في زنزانتة الانفرادية، التي لم يكن يسمح له بالخروج منها الا في السادسة مساء لقضاء حاجته اليومية، الا انه لم يكن مقتنعا او قابلا بان يحرم من معرفة اوضاع واحوال اسرته الصغيرة، خاصة وانه غادر منزله وزوجته في وضعية الاستعداد لولادة طفلها الثالث.

وذاات مساء وبعد ان قضى حاجته في مرحاض المعتقل كما يفعل مساء كل يوم، استرحم حارسه للسماح له بالجلوس على ارضية فناء المعتقل لبعض الوقت، حتى يتمكن من اخذ نصيب اكبر من الهواء النقي يملأ به رئتيه. وعندما لبي طلبه، لاحظ على بعد احد حراس المعتقل من اهل قريته ويدعى طه عبدالله فاستبشر خيرا، ودون ان يحس حاول مناداته، الا ان الحارس الذي كان يرافقه نهره قائلاً:-

- الا تدري بان ليس من حق المعتقل والذي لايزال تحت التحقيق ان ينادي على اي احد مهما كانت الاوضاع؟.

كان ادريس يسعى قدر المستطاع ارضاء حارسه عله يقوم بمساعدته في يوم من الايام. فاختر استخدام اللطف معه قائلاً:-

- لا تأخذني فانا لا ارمي الى شيء. فقط انا شاهدت الحارس طه عبدالله وهو احد ابناء قريتي، حتى فرحت بذلك وارتد السلام عليه. ولم يكن قصدي خرق اجراءات وتعليمات هذا المكان.

طاطا الحارس راسه، ليظهر بانه قد عفى عنه. واسرع في ادخال ادريس الى زنزانتة الانفرادية، حتى لا يتسبب وجوده معه في فناء

المعتقل لفترة اطول من المسموح بها الى احرجات وتوبيخات مرؤوسيه.

في اليوم التالي، خرج ادريس مع حارسه كالعادة لقضاء حاجته. وما ان وصل فناء المعتقل حتى شاهد الحارس طه عبدالله وهو يتجه مسرعا اليه. وما ان وصله حتى قام بالسلام عليه، واستفسر باهتمام ملحوظ عن صحته. بينما تولى حارسه المرافق مراقبة المكان حتى يتمكن، من اعطاء اشارة الافتراق متى ما لاحظ قدوم اي من الحراس الغير موثوق بهم.

بعد ان تبادل الرجلان السلام والتحايا، قال الحارس طه:-

- ان الحارس الذي يرافقك هو زميل لي فلا تخشى منه. وقد اخبرني منذ مجيئك بانك في احدى الزنانات الانفرادية.

واضاف قائلا:-

- لقد اتفقت معه على ان يدبر لي معك لقاء. وهنا نحن نلتقي بفضله.

ارتاح ادريس لما سمعه، وادرك على الفور بان المعاملة القاسية التي كان يظهرها معه حارسه في بعض الاحيان، لم تكن الا محاولة

تمويهية منه، كي لا يعتقد بقية الحراس بانه متعاطف معه، ويقومون بالوشاية به. فقال على الفور:-

- كنت ارتاب في الحارس الذي يرافقتي حتى المرحاض. الا انني تأكدت للتو بانني كنت مخطئا بحق هذا الرجل. وسوف لا انسى له الفضل الذي غمرني به للقاء بك.

رد الحارس طه قائلا:-

- لا عليك فنحن مجبرون على التعامل مع المعتقلين بصورة غير لائقة، اذ ان التعليمات التي تعطى لنا تفيدنا بذلك. لكننا ونتيجة لإحساسنا بتأنيب الضمير، خاصة عندما نتعامل مع المخلصين من ابناء شعبنا، اللذين لا ذنب لهم سوى انهم يحبون بلادهم وشعبهم، نسعى قدر الامكان التخفيف والترويح عنهم متى ما وجدنا لذلك سبيلا.

واضاف قائلا:-

- اطمئن انني سوف احاول اللقاء بك كلما سنحت لي الفرص.

انتهز ادريس فرصة اللقاء بالحارس طه لمعرفة اوضاع اسرته، واحوال صديقيه حقوص واسماعيل فقال:-

- ماهي الاخبار خارج هذا المعتقل البائس، وهل لك ان تحدثني عن اولادي وزميلي حقوص واسماعيل.
التقت الحارس طه يمينة ويسرى، وبعد ان تأكد بان لا احد يراقبهم،
وبان صديقه الحارس يقوم بمهمة المراقبة بصورة مطمئنة، تشجع
ليقول:-

- الاخبار في الخارج سيئة للغاية، فالناس ما عادت تطمئن
على اوضاعها، واصبح الشغل الشاغل لرجال المباحث
العامة، اقتفاء اثار كل من يشكون في ولائه للحكومة. وان
كل المعتقلات قد امتلأت بالمئات من المواطنين...
لم يتمهل ادريس حتى يكمل الحارس طه كلامه، اذ بادر بالقول:-
- وماذا عن حقوص واسماعيل؟.

قدر طه حالة القلق التي تنتاب ادريس خاصة فيما يتعلق بزميليه
حقوص واسماعيل، فاراد مصارحته قائلاً:-

- لقد تم القاء القبض على زميليك في نفس الليلة التي تم
فيها جلبك الى هذا المركز. وهما موجودان مع العديد من
الاشخاص في احدى المعتقلات التي لا تبعد كثيرا عن
هذا المكان. اما بالنسبة للأولاد فهم بصحة جيدة، وان

السيدة فاطمة ومعها اخوك احمد ومنصور يترددون يوميا الى هنا على امل السماح لهم للقاء بك، دون جدوى. ليعودوا ادراجهم بعد ان ينالوا نصيبهم من لعنات واستفزازات حراس بوابة هذا المعتقل.

واضاف قائلاً:-

- ان العاملين في هذا المعتقل خاصة الرؤساء منهم، وبصفة خاصة ذلك السفاح المدعو ابو فاطمة، لا تعرف الرحمة طريقا في قلوبهم المتحجرة. فهم لا يسمحون لأهالي المعتقلين للقاء بذويهم، او حتى بإرسال الطعام والملابس لهم متعللين في انهم لازلوا تحت التحقيق. انهم قساة لا يخافون الله، وان اليوم الذي ينالون فيه جزاء ما اقترفت ايديهم ليس على الله ببعيد.

لم يكن ادريس يعرف الحارس طه عبدالله الا معرفة سطحية عندما كانوا يلتقون بالصدفة في ازقة قرية الشيخ حليب ويتبادلون التحايا. الا انه ومن خلال اللقاء القصير الذي اجراه معه تبين له، بانه رجل اصيل يحب ويقدر الناس، ويرفض بصورة قاطعة كل اساليب

وتعليمات حراس المعتقل ورؤسائهم، فاطمئن له قلبه واراد مصارحته وهو يقول:-

- انني لا اتعاطف مع السياسات التي تقوم بها الحكومة. ولي اعتقاد جازم بان اعتقالي ومجيئي الى هنا لم يكن الا لهذا السبب. ومع ذلك فإنني لا اخشى ما يترتب على عملية اعتقالي، وسوف لا ينال مني الحكام سواء في معنوياتي او مواقف السياسية، وسوف لا اكون خادما مطيعا لهم.

التفت الحارس طه الى ساعته، وتأكد بان الوقت قد تجاوز الحد المسموح لبقاء المعتقلين في فناء المعتقل، وتذكر بان ادريس لم يذهب بعد الى المرحاض لقضاء حاجته. فقال بصورة تتم على الاستعجال:-

- علينا الافتراق، وسوف احاول اللقاء بك في اقرب وقت ممكن، وسوف اتابع اوضاعك عن قرب. اما بالنسبة للأولاد فانني سوف اقوم بزيارتهم للاطمئنان عليهم هذا المساء بعد الانتهاء من نوبة حراستي.

افترق الرجلان، وتوجه ادريس الى المرحاض وافرغ كل ماكان في جوفه، وتوجه بعد ذلك برفقة حارسه الى زنزنته الانفرادية، دون ان ينسى شكره بحرارة فائقة.

مرت ثلاثة ايام منذ ان التقى ادريس بالحارس طه دون ان يلتقيا. وفي ظهر اليوم الرابع، وبينما كان مستلقيا على ارضية زنزنته الانفرادية ذات الرطوبة العالية، فتح على غير العادة باب الزنزانة، ليرى صوتا يطالبه بالخروج ومقابلة الماجور ابو فاطمة.

اقتيد الى المكتب الذي دفع داخله، فشهد الماجور جالسا بصورة مسترخية على مقعد مكتبه، وبجواره احد المتحرين ممسكا بيده دفتر عريضا وباليدي الاخرى قلما. وعلى الفور وبدون اي مقدمات، وبصورة لا تخلوا من الاستفزاز طرح عليه الماجور ابو فاطمة السؤال التالي:-

- اسمك وعمرك، اين تسكن ولماذا اتيت الى هنا؟.

استغرب ادريس لمثل هذه الاسئلة التي لا معنى لها، والتي سبق وان اعطى الاجابة عليها. ومع ذلك لم يكن له اي مفر الا الرد مرة اخرى، فقال:-

- اسمي بالكامل ادريس محمد صالح جابر، ابلغ من العمر حوالي الاربعين عاما بالتقريب، واسكن قرية الشيخ حليب. اما لماذا اتيت الى هنا فهذا لا علم لي به. استقرت ايجابية ادريس الواضحة التي كانت تتم عن ثقة بالنفس، الماجور اب وفاطمة والمتحرى الذي سجل كل كلمة قالها. فرد عليه قائلاً:-

- سوف تعرف في القريب العاجل لماذا اتيت الى هنا. بذلك تاكد بان مسؤول المركز بدا في التحقيق معه، ولذلك قرر بان تكون كلماته منذ الان موزونة وواضحة حتى لا تفلت منه كلمة ما تدخله في اشكالات، ربما لا يستطيع الافلات منهما. وواصل الماجور اسئلته قائلاً:-

- ماذا تعمل، وكم عدد ابنائك وماهي اسمائهم، وما هو اسم زوجتك؟.

رد ادريس:-

- لقد سبق وان قلت بانني اعمل في مزاولة تجارة مواد الزينة والتجميل في السوق العربي، اما ابنائي فهم اثنان اكبرهم

منصور واصغرهم يحي، وان اسم زوجتي هو السيدة
فاطمة، وهي حامل في شهرها الثامن.
تدخل الماجور ابو فاطمة بخشونة ليقول:-

- نريد الاكتفاء بالاسم الاول لزوجتك. واحذرك بان اخفاء
اي شيء نعلمه عنك سوف يعرضك للمسائلة.
رد ادريس قائلاً:-

- من حقي توضيح ما اريد توضيحه، اذ انني الوحيد الذي
يتحمل مسؤولية ما اقله.
ازداد استغراب الماجور لأنه لم يكن يتوقع قوة واردة ادريس. فاراد

كسر ذلك عبر استخدام اسلوب التخاطب الودي فقال: -
- وكم تبلغ فاطمة من العمر؟
رد ادريس قائلاً:-

- انها في الثلاثين من العمر حسب ما اعتقد.
واصل الماجور ليقول:-

- لقد تذكرت ابنتي الوحيدة التي تعيش مع زوجها في منطقة
الفاشر في السودان، عندما قلت بان اسم زوجتك هو
فاطمة.

ادرك ادريس بان الماجور يريد تغيير اسلوب مخاطبته، عبر استخدام وانتقاء تعابير تدخل في نطاق المودة، فاقر بان من مصلحته مجاراته بنفس اسلوبه، عندما قال:-

- الاسماء متشابه سواء هنا عندنا او في السودان.

تمتم الماجور بصوت منخفض قائلاً:-

- نعم... نعم هناك تشابه في الاسماء والعادات والتقاليد.

واستدرك الماجور سريعاً، بان عليه ايضاً الدخول في صميم ما يريده
اذ قال:-

- سوف يكون لنا متسعاً من الوقت للتحدث حول اسرتنا
واوضاعنا الاجتماعية.

واضاف قائلاً:-

- ما يهمنى توضيحه لك، هو انك متهم بالقيام بإجراء اجتماعات سياسية مع بعض اصدقائك للتأثير على مجرى الاحداث السياسية في البلاد بصورة سلبية، وهذا يتعارض تماماً مع برامج وتطلعات الحكومة الارتزية، التي تسعى الي خلق ظروف ملائمة تساعد على استقرار امن وسلامة البلد.

لم يخب ظن ادريس، فهو ومنذ البداية كان يتوقع ان توجه له مثل
هذا التهمة فقال دون اي مواربة:-

- لم اعقد اي اجتماعات تتسبب في تعكير الوضع العام في
البلاد. فانا شخص مسالم بطبيعتي، ولا هم لي سوى ان
ارى بلادنا تتعم بالاستقرار...

قاطعها الماجور ابو فاطمة قائلاً:-

- لاشك في ذلك. الا ان بعضا من مواطني هذه البلاد، وهم
بالمناسبة يشكلون الاقلية، يسعون بدافع من قبل بعض
الاحزاب والشخصيات، ولحسابات خاصة بهم، الى معاداة
صاحب المعالي رئيس الحكومة السيد اسفها ولدي
ميكائيل.

واضاف قائلاً:-

- لقد وصلتنا منذ فترة ليست بالقصيرة، معلومات تفيد بانك
وبعضا من زملائك تعقدون الاجتماعات مع بعض
المشبهين. وهذا يضر بالمصلحة العليا للبلاد.

تاكد ادريس بان الماجور ورجاله حتى وان كانوا يعلمون بانه
وصديقيه حقوص واسماعيل ناشطون سياسيون، الا انهم لايعلمون

بالتحديد مواقفهم السياسية، وان ما يقوم به الماجور ينصب لا محالة لمعرفة ذلك بصورة قاطعة.

اراد ادريس كسب الوقت، فقرر اعادة ما قاله عندما قال:-

- لا توجد لدي مصلحة شخصية تفرض علي ان اقوم بعقد لقاءات مع مشبوهين. فانا كما قلت رجل بسيط، واعيش بجهدى وعرق جبيني.

لم يشأ الماجور الدخول في صدام مباشر مع ادريس منذ بداية التحقيق. فهو يعرف من خلال تجربته في قضايا التحقيق التي مارسها لسنوات عديدة في السودان، بان من الصعب انتزاع الاعترافات المطلوبة من قبل اي متهم خلال جلسة او جلسيتين من التحقيق، فقرر تأجيل الموضوع برمته عندما اقترح:-

- اعتقد بان علينا الاكتفاء بما تداولناه من نقاش. وسوف اعطيك الوقت الكافي للتفكير فيما قلته لك، على امل ان القاك قريباً.

وعلى الفور امر الحارس بإعادة ادريس الى زنزانته.

قام الماجور ابو فاطمة بعد ذلك، باستدعاء العاملين معه ووجه لهم التعليمات التالية:-

- انكم تعلمون باننا في وضع غير طبيعي، فهناك عدد كبير من المعتقلين وكلهم ناشطون سياسيون يجيدون فن المناقشة والمراوغة، ويكاد من الصعب انتزاع الاعترافات منهم.

واضاف قائلاً:-

- علينا من الان تغيير اساليبنا في التعامل مع مثل هؤلاء. فهناك المدعو ادريس محمد صالح، وهو حسب ما لاحظته قوي الشخصية، مطلع سياسي من الطراز الاول، له القدرة على اقناع الناس بما يؤمن به. وهو في نفس الوقت رافض بل معادي لكل توجهات الحكومة.

تدخل احد الحضور بهدف الاستيضاح:-

- يكون من المهم جدا لو حدد لنا الاسلوب الذي يجب ان نتعامل به.

استدرك الماجور اهمية ما طرح فرد قائلاً:-

- نعم، ان اسلوب تعاملنا الجديد يجب ان يستند على الابتعاد قدر الامكان عن استخدام العنف حتى البسيط منه ضد المعتقلين، وبصفة خاصة ضد ادريس محمد

صالح. بالإضافة الى الابتعاد عن الشتم، والاستهزاء، وعدم توجيه الالهانات. وهذا الاسلوب سوف يمكننا من التأثير، ان لم يكن على معظم المعتقلين، على الكثيرين منهم. والذين يمكن ان نستخدمهم بعد ذلك للتجسس على الرافضين للتجاوب مع مطالبنا.

(3)

لا حظ ادريس بان هناك تغيرا مفاجئاً طرأ على تصرفات الحراس تجاهه، وتجاه كل المعتقلين. فهم لا ينهرونهم او يشتمونهم كما كانوا يفعلون في السابق، وبدأت اوضاعهم المعيشية تتحسن اذ تم تنوع وجبات الطعام لهم، واحدة في الصباح مكونة من خبزتين وكاس متوسطة من الشاي، والثانية في المساء مكونة في الغالب من صحن ارز ترش فوقه كمية لا باس بها من البازلاء الخضراء او الفاصوليا البيضاء، ومعهما ابريقا من الماء النقي شبيه بمثل ما يقدم للحراس العاملين في المعتقل. كما سمح لهم الاستحمام كل مساء، وزادوا الفترة الزمنية التي كانت تسمح لهم لقضاء حاجاتهم. واذا احس ادهم بوعكة صحية بادر الحراس الى استدعاء ممرض المعتقل له. حاول ادريس الاستفسار عن هذا التغيير المفاجئ عندما سال حارسه المرافق:-

- ماذا حدث ارى القوم عندكم يعاملوننا وكأننا ضيوف اعزاء

لديهم؟.

قال الحارس:-

- حتى انا لا اعلم سبب هذا التغير بالتحديد. ولكن علمت وبصورة غير رسمية من بعض الحراس وهم يقولون، في غرفة الاستراحة، بان هناك تعليمات قد صدرت من قبل الماجور ابو فاطمة، تنص على ضرورة معاملة المعتقلين بصورة لائقة. الا انهم لم يواصلوا حديثهم عندما لاحظوا وجودي بينهم.

الا ان ادريس، حتى وان لاحظ بان المعاملة قد تغيرت، فانه لاحظ ايضا بان مسؤولي المعتقل لازلوا يرفضون السماح للمعتقلين بلقاء ذويهم او لقاء بعضهم البعض. ومن هنا اخذ يحس بان هناك امرا ما قد دفع ماجور المعتقل لاتباع اسلوب الرفق بالمعتقلين. وانه سوف يعرف السبب الحقيقي في كل ذلك طال ام قصر الزمن. بعد اسبوع وفي العاشرة صباحا، استدعي ادريس الى مكتب الماجور ابو فاطمة، الذي ما ان راه حتى قال له بصورة تتم عن اللطف والتقدير:-

- كيف الحال، امل ان تكون بخير؟.

تعجب ادريس لكنه سرعان ما قال:-

- الحمد لله انا بخير، وافضل حالا.

التفت الماجور الى الحارس المرافق وقال له:-
- اذهب واحضر كوبا من الماء البارد لإدريس.
ابتسم ادريس وشكر الماجور على كرمه، ولطفه.
ما ان احضر كوب الماء حتى امر الماجور الحارس بمغادرة المكان.
وبدا بالحديث، بينما قام المتحرى بالتسجيل:-
- التقينا في الاسبوع الماضي، واعتقد بانك تذكر ما قلته
لك. وعليه امل ان تكون مستعدا للرد على كل ما اطرحه
عليك بوضوح وصراحة.
رد ادريس قائلاً:-
- سوف لا اخفي عنك ما اعلمه.
ظهرت على الماجور ابتسامة عريضة تتم عن الرضى وهو يقول:-
- حسنا. اريد اولاً ان افهم لماذا كنت تشترك في اجتماعات
تكاد تكون معادية للحكومة التي انتخبها الشعب؟.
احس ادريس بان المواجهة قادمة لا محال. الا انه اراد تأجيلها
حتى يتمكن من معرفة نوايا الماجور الحقيقية، عندما قال:-
- انا لا انكر، فقد كنت اشترك مع العديد من زملائي،
وبعض معارفي في نقاشات سياسية.

انفرجت اسارير الماجور ابو فاطمة، اذ اعتقد بانه ربما تمكن من ترويض ادريس، فقال على الفور:-

- حسنا لقد كنت تشترك في اجتماعات سياسية. والسؤال الذي اود طرحه هو، ماهي الامور السياسية التي كنت انت وزملائك تثيرونها اثناء اجتماعاتكم؟.

رد ادريس قائلاً:-

- كنا ننقاش معظم التطورات والقضايا السياسية التي كانت تنشر في مختلف الصحف اليومية منها والاسبوعية، وكذلك التي كانت تثار داخل البرلمان.

قال الماجور:-

- انا لا اسألك عن القضايا التي كانت تثيرها الصحافة لحسابات سياسية خاصة بها معروفة لدينا. انما اسال عن القضايا التي لم تكن تنشرها تلك الصحف.

رد ادريس قائلاً:-

- نحن لم نكن نناقش قضايا اخرى.

تأكد الماجور بان ادريس بدا يناور، ولذلك راي ضرورة طرح الاسئلة بصورة مباشرة وبنوع من الصرامة، اذ قال:-

- اسمع يا ادريس، اذا كنت تريد الخروج سريعا من هذا المكان، وتعود الى اولادك سالما عليك التعاون معي. ولذلك سوف امهلك الان ايضا متسعا من الوقت. وعلى الفور نادى على الحارس المرافق، وطلب منه اعادة ادريس الى الزنزانة الانفرادية.

في الطريق همس الحارس بحذر ليقول:-

- اراك غير طبيعيا امل ان لا يكون الحيوان قد استفذك؟. التفت ادريس نحو الحارس بصورة مفاجئة، اذ انه لم يكن يتوقع منه ان يصف الماجور ابو فاطمة بالحيوان، وقال:-
- صدقت ان الذي بالداخل ليس هو الا حيوانا ناطقا.
واضاف قائلا:-

- لقد حاول بصورة ملطفة ان ينتزع مني حقيقة ما كنا نناقشه في الاجتماعات السياسية التي كنا نقوم بها. وبعد ان فشل في ذلك، هددني بانه سوف ينتزع مني ما يريدته بالقوة، وامهلني حتى يوم غد.

اراد الحارس المرافق التخفيف عن ادريس اذ قال:-

- لا عليك، انت رجل وابن رجل مؤمن. وتذكر تماما بان
اي كان لا يستطيع، مهما فعل باللين او الشدة، اجبار اي
شخص في قول ما لا يريد قوله.

كبر الحارس المرافق في عين ادريس. فهو يكتشف كل يوم جديدا
من قبل هذا المواطن. ولم يكن له الا شكره مع التأكيد له بانه ومهما
تجبر ابو فاطمة فانه سوف لن ينال منه، ودخل الى زنزانته.
في اليوم التالي وكالعادة وفي العاشرة صباحا، استدعي ادريس ليقف
امام الماجور ابو فاطمة ويرد على الاسئلة التي تطرح عليه. ودون
اي مقدمات، ودون حتى القاء تحية الصباح، قال:-

- ما الجديد لديك. اراجعت عقلك، وهل انت على استعداد
لقول الحقيقة؟.

رد ادريس قائلا:-

- نعم انا على استعداد لقول ما اود قوله.

تدخل الماجور قائلا:-

- حسنا، ماذا كنت تتناقش انت واصدقاؤك في اجتماعاتكم
السياسية؟.

رد ادريس:-

- كنا كما قلت نناقش القضايا السياسية العامة في بلادنا
ليس الا.

استنفر الماجور، وبدا يهدد قائلاً:-

- انك تدرك عواقب امتناعك عن قول الحقيقة. فنحن نعرف
بانك انت وزملاؤك كنتم تتآمرون لإسقاط الحكومة التي
انتخبها الشعب الارترى عبر برلمانه الموقر.

انتظر ادريس لبرهة حتى يجمع افكاره، ليقول بعد ذلك:-

- كنا نعقد اجتماعات مشروعة، وهذا ما تبثه لنا الدستور
كحق طبيعي لنا.

تدخل الماجور قائلاً:-

- الا ان الدستور لم يعطيكم الحق للتآمر على حكومة
منتخبة ديمقراطيا ووفقا للدستور.

رد ادريس بعد ان احس بان المواجهة سوف تكون حادة:-

- لم نتآمر على الحكومة، فنحن اناس بسطاء بالكاد
نتحصل على لقمة عيشنا بشق الانفس. لا اموال ولا
قدرات لنا للوقوف امام الحكومة.

قام الماجور ابوظاطمة منتفضا من على كرسيه ليقول:-

- معنى هذا اذا كانت لكم الامكانيات والقدرات، فإنكم كنتم ستقومون لا محالة بالتآمر على الحكومة واسقاطها؟.

رد ادريس بحدة قائلاً:-

- لم اقل هذا الكلام، انما انت الذي تقوله.

لم يتحمل الماجور ابو فاطمة ما قاله ادريس، واحس وكان اهانة قد لحقت به. فانتفخت اوداجه، وتشنجت اصابع يده على عنق العصا وهي تحدث صوتا لتهوى على راس ادريس، الذي انفجر لتتدفق منه الدماء وتبلل صدرية بدلته الكاكي التي كان يرتديها. وفي لحظات كان ادريس محمولا على اكتاف الحراس الى زنزانته الانفرادية.

في اليوم التالي تمكن ادريس من استعادة انفاسه وبدا بمراجعة الحديث الذي تم بينه وبين الماجور ابو فاطمة. فتأكد له من خلال التحقيقات التي اجريت معه، بان هدف الاعتقال ومن ثم الاعتداء الجسدي الذي تعرض له، لم يكن سوى مؤامرة مدبرة قامت بها اجهزة الامن الاثيوبية، من اجل النيل من المواطنين الشرفاء تحت حجة باطلة، تمثلت في الادعاء بالتآمر على حكومة السيد اسفها ولدي ميكائيل.

كما تاكد له بان سياسة المهادنة التي اتبعها الماجور قد اثمرت على الحصول على بعض ضعاف النفوس من المعتقلين، اللذين كانوا يغذون سلطات المعتقل بكل ما يعرفونه وما لا يعرفونه، حتى يتمكنوا من النجاة بجلودهم. والا لما تمكن الماجور من طرح اسئلته وهو على شبه قناعة تامة بمصداقيتها. كما علم بان عملية الاهانة والضرب لم تختصرا عليه فقط، بل ان زميليه حقوص ارعدوم واسماعيل زبوي عمريت قد تعرضا ايضا لإهانات وعصا الحيوان ابو فاطمة.

ومن جانب اخر خابت كل ظنون الماجور ابو فاطمة، اذ لم تقلح سياسة الترغيب التي اتبعها الا على استمالة بعضا من المعتقلين. فلم يكن له من بد سوى ان يرفع تقريره للكولونيل الاثيوبي ولدي هواريات، الذي اصدر تعليماته بالإفراج عن كل من ادريس وزميليه حقوص واسماعيل، وبعضا من المعتقلين بكفالة مالية، قام بتغطيتها احد مواطني قرية الشيخ حليب ويدعى السيد صالح عمر عباسي. وذلك خوفا من بعض اعضاء البرلمان اللذين هددوا برفع شكوى رسمية ضد رؤساء مصلحة المباحث العامة بشأن بطلان اعتقال مواطنين ابرياء، الى الامبراطور هيلي سيلاسي.

في يوليو من عام 1957م اي بعد سنة وسبعة اشهر، تمكن ادريس وزمليه حقوص واسماعيل من الخروج من معتقل مصلحة المباحث العامة. وما ان علم اهالي قرية الشيخ حليب وضواحيها، حتى تقاطروا على منزل ادريس افواجا، البعض منهم يحمل، كما يقتضيه عرف المنطقة، ما تيسر له من المواد الاستهلاكية مثل السكر والشاي والبن، والبعض الاخر كان يحمل تهانيه بسلامة الخروج من المعتقل، وتمنياته بالخير والسعادة لأهل بيت ادريس.

بدأ ادريس بقراءة الواقع العام السياسي والاقتصادي والاجتماعي. فخلص الى ان الحال نتيجة اضطراب الحكومة نفسها التي تمادت في اتخاذ الخطوات التي تخرق سيادة الدستور الارتري، مثل مضايقة البرلمان الارتري بهدف تسهيل تمرير المشاريع المشبوهة التي تساهم على تحقيق الاطماع الاثيوبية، والتدخل في الاعمال الادارية للحكومة، والقيام بالاعتقال العشوائي للمواطنين، وطرد ومضايقة المشتبه في تأييدهم لسياسة الحكومة من كافة الدوائر الحكومية والاعمال التجارية الخاصة، ومراقبة نشاطات قادة الاحزاب والتجمعات السياسية والتجسس عليهم.

وبالمقابل ازدادت حالة الاحتجاجات والاضرابات من قبل المواطنين. وشملت حتى بعض القادة والزعماء السياسيين. بل قام البعض منهم بالتحدي بصورة مباشرة من خلال عقد اللقاءات والندوات السياسية التي تفصح انتهاكات الحكومة الاثيوبية، لقرار الاتحاد الفيدرالي. ولم يكن الوضع الاقتصادي بأفضل من الوضع السياسي العام في البلاد. فقد ازدادت حالة البطالة، وارتفعت اسعار المواد الاستهلاكية، ولم يعد الناس بالقادرين على توفير لقمة عيش ابنائهم. كانت من نتائجها هروب او اجبار العديد من المواطنين للهجرة الى مختلف دول الجوار مثل اثيوبيا، والسودان، واليمن والسعودية بهدف البحث عن العمل.

وادرك ادريس وصديقيه، اللذين خرجوا من المعتقل بانهم اصبحوا عرضة للمراقبة الدائمة من قبل البوليس، مع استحالة العمل، بل وايضا استحالة العيش في البلاد. فقرروا البحث عن مخرج يوفر لهم اولا الحصول على لقمة العيش الشريفة، وثانيا مواصلة النضال ضد اثيوبيا بصورة ناجعة. فاختاروا الهجرة من البلاد، وكان الملاذ الامن لهم هو الاستقرار الى حين في بلاد السودان المجاور.

(4)

اخذت المشاورات حول الهجرة تتكثف بين ادريس وصديقه حقوص ارعدوم يوما إثر آخر. ليقرروا في نهاية المطاف وبصورة مشتركة، الاسراع في ترتيب اوضاعهم الخاصة، والاستعداد للرحيل متى ما توفرت لهم سبل ذلك.

وكان لزاما على ادريس مفاتحة زوجته السيدة فاطمة بامر الرحيل اولا وقبل اي شخص اخر وتهيئتها، خاصة وانها كانت تعيش خلال وبعد اعتقاله، حالة نفسية متردية. فقال لها في احدى الامسيات:-

- انك تلاحظين دون شك ما الت اليه اوضاعنا الخاصة، واوضاع الحالة السياسية العامة التي تمر بها بلادنا...

قاطعته دون ان يكمل وهي تقول:-

- اشاطرك الراي في اننا وجميع اهالي قريتنا نمر باحوال سيئة، الا انني لا ادري كيف يمكن ان نتجاوز هذه الحالة.

قدر ادريس الحالة النفسية التي تعيشها زوجته، الا انه لم يجد المفر في ان يقول:-

- لم تعد لنا القدرة على العيش مطمئني البال في بلادنا،
ولذلك علينا التفكير بصورة جادة للخروج منها رغم ما
سنعانيه من الم الفراق والحنين لهذه الارض.
امنت السيدة فاطمة في قرارة نفسها على صحة ما قيل، وسرعان ما
قالت:-

- نعم نحن في حالة يرثى لها، فلا انت بالقادر على توفير
لقمة عيشنا في هذه البلاد، ولا انا بالقادرة على مساعدتك
من الخروج من هذا المأزق. ومن هنا واعتبارا للأوضاع
الغير طبيعية التي نعيشها، علينا البحث عن مكان اخر
يوفر لنا لقمة العيش كأقل مطلب.
واضافت مقترحة:-

- ارى بان نتوجه الى العاصمة اسمرا، وتبحث فيها عن
عمل يمكننا من العيش بسلام واطمئنان، والى حين ذلك
يمكن ان نكون ضيوفا بصورة مؤقتة عند احد اقربائنا.
لم يكن في خاطر ادريس ان يستقر في العاصمة، فهي في تقديره
سوف لن توفر له الاستقرار والطمأنينة كما تتصور زوجته، بل على

العكس من ذلك سوف تعرضه اكثر لمتابعة ومراقبة رجال المباحث العامة. فاقترح البديل وهو يركز عينيه داخل احداقها:-

- انني لا ارى ما ترينه. فالعاصمة وقريتنا، قرية الشيخ حليب، لا يمكنهما ان يوفرنا لنا ما نريد، لذلك فان افضل شئ لنا هو الهجرة الى بلاد الله الواسعة.

انزع قلب السيدة فاطمة عندما سمعت ببلاد الله الواسعة، اذ ادركت بان ادريس ينوي مغادرة البلاد، فقالت على الفور:-

- بلاد الله الواسعة ... ماهذا الكلام اتريد منا ترك ديارنا؟ كيف يمكننا العيش في بلاد الغربية في الوقت الذي لانزال عاجزين للعيش بامن وسلام في بلاد اباعنا واجدادنا؟.

ادرك ادريس بان ليس من السهولة بمكان اقناع زوجته خلال جلسة واحدة، او خلال لحظة من اللحظات باهمية الهجرة وترك الديار. فاقترح تأجيل النقاش في هذا الصدد قائلاً:-

- لنترك الحديث في هذا المضمار لمناسبة اخرى، او اذا شئت ليوم غد، حتى تترتب افكارك عليك تساعدينني في اتخاذ الخيار الانسب لنا.

وافقت السيدة فاطمة على الاقتراح فذلك يعطيها المزيد من الوقت للتفكير، واسرعت في احضار ما تيسر من طعام العشاء لتقدمه لزوجها. ومع تناقل الهموم التي سيطرت على فكرها، وفي حركة لا ارادية انتفضت لتقول في صوت لا يتناغم مع حركتها، تصبح على خير وجرجرت ارجلها في تناقل نحو مرقدتها، وهي تحتضن ابنتها زينب الصغيرة التي لم تتجاوز الثلاث اشهر من عمرها، والتي ولدت بينما كان ابوها معتقلا في مركز المباحث العامة. الا ان السيدة لم تغلق في النوم. ويعود ذلك في انها ومنذ ان تمددت على سريرها الخشبي، والى حين انبلاج فجر اليوم التالي، وهي تغرق من تفكير الى اخر وتقلب كل كلمة قالها لها زوجها دون ان تتوصل الى قرار معين، ودون ان تتذوق طعما للنوم.

في مساء اليوم التالي، وحسب الاتفاق بادرت السيدة فاطمة قائلة:-

- لم اذق طعما للنوم منذ ان افترقنا يوم امس وحتى هذا اللحظة.

اراد ادريس التخفيف من وقع ذلك على زوجته عندما قال:-

- خير يا فاطمة ماذا بك؟ فاذا كان يشغلك ما قلته بالأمس، فإنني في الواقع لم اقل غير الصواب. فنحن وباعتبار اننا

معرضون لملاحقة رجال المباحث العامة الذين يمكن
ومتى ما ارادوا الزج بنا في السجون، فان من الصعب
علينا العيش في هذه البلاد، ومن الافضل لنا البحث عن
مكان نستقر فيه الى ان يجعل لنا الله مخرجا.

ارادت السيدة الاستسفار عن الوجهة التي يريد ادريس الهجرة اليها،
فقال:-

- حسنا اذا كنت لا ترغب في الاستقرار في العاصمة اسمرا،
فألى اين تريد بنا الرحيل؟.

رد عليها هذه المرة بصورة حازمة قائلا:-

- ارى بان افضل مكان يمكن ان نهجر اليه ونستقر فيه هو
السودان.

ما ان سمعت السيدة باسم السودان حتى كادت تفقد صوابها، وهي
تقول فزعة:-

- السودان... السو... يا الاهي. ان والدي رحمة الله عليه
كان يقول انه مكان بعيد للغاية، ولا يمكن لاحد ان يصله
الا بشق الانفس.

واضافت قائلة:-

- نحن لم يحدث وان ابتعدنا عن قريتنا. لقد ولدنا وترعرعنا،
وتزوجنا وانجبنا فيها. وقد ذقنا حلاوتها ومرارتها، ولم
نشكو من اي شيء. وبعد كل ذلك تريد منا ان نرحل
عنها، والى اين، الى السودان الذي تغرب فيه الشمس.

ودون ان تدري بدأت تدعو بصوت منخفض قائلة:-

- يا لطيف الطف بنا، كما كنت تطف بأبئنا وامهاتنا. اللهم
لا تسمح بان يشمت بنا من لا يحبنا ومن لا يخاف منك.
ربنا اجعل لنا مخرجا من هذه الازمة، وانقذنا من عذاب
النار.

حاول ادريس تهدئتها قائلاً:-

- يا ام منصور صحيح بان من الصعب على الناس ترك
ديارهم، والابتعاد عن المكان الذي ولدوا وتربوا وعاشوا
فيه. لكن الامور بالنسبة لنا لم تعد تطاق في هذا البلد
الذي نحبه ونعتز به. فالخروج والابتعاد عن مراقبة
ومتابعة رجالات الحكومة هو افضل شيء لنا. اذ سوف
نتمكن من توفير ما نحتاجه، ونقوم بالمحافظة على
وجودنا.

واضاف:-

- ان الهجرة ليست بالجديدة علينا نحن اهالي قرية الشيخ حليب. فقد سبقنا فيها العديد من الاهالي سواء في ايام الاتراك او الطليان عندما ضاقت بهم سبل الحياة. وعادوا اليها بعد زوال الخطر الذي كان يترص بهم. ونحن سوف لن نمكث في المهجر الذي نختاره طواعية الا لفترة زمنية محدودة، ثم نعود الى قريتنا بعد ان تزول اسباب هجرتنا ويرفع الله البلاء عنها وعنا.

اطمأنت السيدة قليلا، ومع ذلك ارادت الاستفسار عندما قالت:-

- لكن كيف السبيل الى ذلك؟ ماذا سوف يكون مصير مزرعتنا، وبهائمننا، وفوق هذا وذاك الدكان الذي نقتات منه؟ وكيف سنعيش ونتعاش في بلاد الغربة البعيدة تلك؟ وماذا... وماذا؟.

لم يود ادريس الإجابة على كل تلك الاسئلة، فاختر الهروب مؤقتا عل ذلك يمكنه من تغيير الموضوع ولو مؤقتا، حتى يفكر في الاجوبة الصحيحة، فاقترح قائلا:-

- فلناجل هذا النقاش حتى يوم غد. وسوف يهدينا الله الى الصراط المستقيم.

ارتاح قلب السيدة وتوجهت الى مرقدتها حيث زينب الصغيرة في انتظارها، لتتخرط في نوم طويل فاقت منه في صباح اليوم التالي. قام ادريس من نومه على صوت اذان مؤذن القرية. ليتوجه بعد ذلك الى المسجد الصغير الذي لا يبعد عن داره سوى بضع امتار ليؤدي صلاة الفجر. وما ان فرغ من ذلك، ودون ان يعرج الى منزله كالعادة ويتناول فيه طعام افطاره، توجه الى المدينة وقام بفتح دكانه. ومع شروق الشمس دبت الحياة في السوق العربي في مدينة مصوع. قدم حقوص يتبعه اسماعيل الى دكان ادريس، وتم اللقاء مجددا بين الاصدقاء الثلاثة. وبعد تبادل تحية الصباح، طلب ادريس ثلاثة اكواب من الشاي. ليقول اسماعيل بصورة مفاجئة:-

- كان قرارنا صائبا للرحيل من هذه المدينة البائسة...

ودون ان يكمل قاطعه حقوص بالقول:-

- ماذنب هذه المدينة حتى تصفها وتتعتها بالبوؤس؟ فهي كانت ولازالت حاضنة لنا كالأُم الحنون. وكان الاجدر

بك لعن من هم في السلطة، بدلا من وصف مدينتنا
الصامدة بالبؤس.

هز ادريس راسه علامة على الرضى على مقاله حقوص. وادرك
اسماعيل خطاه فاعتذر سريعا.

ساد الصمت قليلا، ليقوم ادريس بعدها باثارة موضوع الرحيل قائلا:-
- لقد سبق وان اتفقنا على الرحيل. وان من الافضل ان
يرتب كل منا اوضاعه بصورة حذرة، حتى لا يكون
عرضة لمسائلة رجال المباحث العامة.

واضاف قائلا:-

- من جانبي فقد اثرت الموضوع مع اهل بيتي. وعلى الرغم
من صعوبة تقبلهم لمفارقة الديار، الا انني سوف احاول
اقناعهم بأهمية الرحيل والهجرة الى السودان.

تدخل حقوص ليقول:-

- بالنسبة لي فقد اثرت الموضوع مع زوجتي، وهي على اتم
استعداد لمصاحبتني الى الوجهة التي ابتيغها.

بعد ذلك تلقف اسماعيل دفعة الحديث ليقول:-

- اتفقت مع شخص قريب لزوجتي يتردد باستمرار على السودان، بان يصطحبني معه عندما يعود الى هناك. حان وقت طعام الغداء، وتوجه الاصدقاء كل الى حاله. توجه ادريس الى منزله بالقرية في الوقت المعتاد، وهو متلهفا لحسم موضوع الرحيل مع زوجته وما ان التقاها حتى بادرها قائلا:-

- ان اي يوم يضيع منا دون ان نحسم موضوع رحيلنا وهجرتنا الى السودان سيكلفنا الكثير، وربما يعرقل علينا موضوع الرحيل برمته. ان الوقت من ذهب وعلينا استغلاله.

لم تبدي السيدة فاطمة اي اعتراض على ما سمعته، بل كانت تحبذ الدخول في الموضوع بصورة مباشرة اذ قالت:-

- انني على استعداد لسماع ما تريد قوله، فهات ما عندك. تشجع ادريس ليقول بعد ذلك:-

- لقد اثرنا يوم البارحة مسالة رحيلنا من قريتنا هذه، وايضا اثرنا ما يترتب عليه من امور عدة.

ردت السيدة فاطمة التي كانت تستمع الى زوجها باهتمام ملحوظ قائلة:-

- نعم، اذ كان لا بد من الرحيل، فعلينا ترتيب مصالحنا سواء فيما يتعلق بقطعة الارض الزراعية، او فيما يتعلق بالدكان.

لم يتردد ادريس في الاجابة على ما طلبت:-

- لم نهتم بقطعة الارض الزراعية التي ورثتها عن ابي. فقد كانت مهمة ولم نكن نستفيد منها. وفي اعتقادي فاننا سوف لا نستفيد منها، وسوف تظل مهمة كما كانت. اما بالنسبة للدكان، فانني ارى تسليمه لآخي احمد اذا لم يكن لك مانع.

واضاف:-

- اما بالنسبة لطريقة الخروج من قرينتنا هذه والتوجه الى السودان، فانني ارى حتى لا ينكشف امرنا لدى رجال المباحث العامة، ان ندعي باننا ذاهبون الى مدينة كرن لحضور زواج احد اقربائنا. ومن هناك سوف نتدبر امرنا. لم يكن امام السيدة فاطمة من مفر سوى اتباع وتأييد ما يقترحه زوجها. فهي تدرك تماما، بانه حتى وان كان من غير المحبب

مغادرة القرية، فان الظروف تحتم عليهم قبول ما لا يقبل. وعلى الفور تشجعت لتقول:-

- منذ ان تكلمنا في موضوع الهجرة التي لا مفر منها، وانا اجهز حالي لمغادرة القرية. وانني الان على اتم الاستعداد للذهاب معك الى الارض التي تغرب فيها الشمس. فانا لا يمكن ان افصل مصيرى عن مصيرك ومصير اولادنا.

واردفت قائلة:-

- لكن هناك موضوع اخر لم نبت فيه، الا وهو موضوع السيدة ملوك. فنحن في تقديري لا يمكن ان نرحل ونتركها وراءنا وحيدة في هذا العمر.

رد ادريس:-

- بطبيعة الحال لا يمكن ان نترك السيدة، فهي لا يمكن ان تستغني عنا. بالاضافة الى تعلقها بابننا منصور. وقد يكون من المهم ابلاغها بما ننوى القيام به.

في اليوم التالي التقى ادريس بوالدته السيدة ملوك عبدالقادر، ودون اضاءة الوقت ابلاغها قراره ترك دياره والتوجه الى السودان.

بدى على السيدة عدم الارتياح، ومع ذلك ارادت الاستفسار عن اسباب ذلك:-

- لكن ما الذي يجبرك للتوجه الى السودان؟

رد عليها قائلاً:-

- الاوضاع كما ترينها. وقد اصبحنا لا نطمئن حتى على ارواحنا. ويمكن ان نكون عرضة لمسائلة وتحقيقات رجال الامن، دون ان نرتكب ذنبا جنيناه باستثناء الاهتمام بالاوضاع السياسية التي تمر ببلادنا.

لم تكن السيدة بالقادرة على اعتراض مقترح ابنها، وسرعان ما وافقة على رايه:-

- صدقت من الصعب ان نترك ديارنا، لكن ايضا من الصعب علينا العيش فيها ونحن نهدد من قبل رجال الامن. ومن الحكمة البحث عن مكان نحتمى به.

وعلى الفور عاجلها ادريس قائلاً:-

- اذا سوف ترحلين معنا الى دارة الغربية.

ردت عليه:-

- نعم فانا لا يمكنني ان اعيش في هذه القرية بعدكم.

ارتاح ادريس لما سمعه، واكتفى بالقول:-

- اذا على بركة الله يا ام ادريس.

خلال اسبوع تمكن ادريس من استخراج رخصة جديدة لدكانه باسم اخيه احمد، واشاع بانه واسرته ذاهبون الى مدينة كرن لحضور زواج احد اقرباء السيدة فاطمة. وبذا جهز نفسه واسرته واستعد للرحيل.

وفي الوقت المحدد للرحيل سلم دكانه لاخته وودعه بحرارة، وطلب منه الحذر اثناء التعامل مع الغرباء، وعدم الاختلاط برفاق السوء. واوصاه بالجيران، واذا سال احدهم عنه، ان يقول له بانه في كرن لحضور زواج احد الاقرباء.

ودون اضاءة الوقت، توجه مصطحبا بطبيعة الحال والدته، وزوجته وابنه منصور والصغيرة زينب، الى محطة قطار مدينة مصوع، ليالحق بالقطار المتجه الى اسمرأ، ومنها الى كرن ومن ثم الى اغوردات، التي مكث فيها قرابة اليومين مع احد من كان يتاجر معهم بمواد الزينة والتجميل.

كان ادريس على علم تام بما كان يجري في مدينة كرن. فقد كانت هي الأخرى معرضة مثلها مثل العديد من المدن الإترية لخطر غطسة وجبروت الموالين لإثيوبيا. فقد تم سجن واعتقال العديد من المواطنين

فيها، وأجبر العديد لترك ديارهم واللجوء الى السودان والريف المجاور لهم.

ولم يكن الحال في مدينة أغوردات بأحس حالا من المدن الأخرى ايضا، فبجانب الظهور الواضح للاتجاه الممالئ لإثيوبيا والذي تمثل فيما تبقى من زعماء "الرابطة الإسلامية للمديرية الغربية" على واقعها العام، فإن بعض المشائخ ونظار القبائل الرافضين للتوجهات السياسية للشيخ إبراهيم سلطان علي قد جعلوا من المدينة احدى مواقعهم الأساسية التي ينطلقون منها للتبشير بدعاويهم ومنطلقاتهم السياسية.

خلال الرحلة الى اغوردات تذكر ادريس ماكان يرويه له والده عن قصة انشاء سكة الحديد، وكيف لعبت دورا مهما في ربط معظم اجزاء مناطق ارتريا بعضها ببعض، وكيف تحقق عبر ذلك ربط المصالح الاقتصادية بصورة مشتركة لكل الفئات الارترية، التي شكلت سويا ما عرف فيما بعد بالوطن الارترى.

تمكن ادريس عبر مساعدة صديقه صاحب اغوردات من تاجير جملين حملهما بالماء والزاد الذي يكفيه واسرته حتى الوصول الى كسلا. واخذ الطريق المتجه غربا الى منطقة بيشة، ومن ثم عرج

على منطقتي القدين وسبدرات، ليصل بعد يومين سالما الى مدينة كسلا عبر قرية ادييرة الارتية. استقبلهم فيها بالترحاب السيد محمد علي وهو سوداني من اصل ارتري، واستضافهم حسب ما تقتضيه اعراف اهل المنطقة لثلاثة ايام. ومن ثم اصطحبهم الى مسكنهم الذي استاجره لهم في حي الختمية.

وبعد اسبوع لحق حقوص وزوجته باسرة ادريس، التي قامت هي ايضا بدورها باستضافتهم لثلاثة ايام، لينتقلوا بعد ذلك الى قرية خشم القرية الزراعية والسكن فيها مع احدى قريبتهم. ولم يمر الوقت طويلا حتى تمكنت الاسرتان من التأقلم مع الاوضاع الجديدة في السودان.

والى لقاء آخر في الجزء الثاني .